ايار ١٩٣١

في سماح الله بحدوث الشرّ الادبي

للاب ارمند اودين ، من رهبنة قلب يسوع الاقدس[*]

مقدمة

قد بيّنا ، في مقالة سابقة[1] ، الفرق الموجود بين نوعي الشر : الطبيعي والادبي ؛ واثبتنا ان هذا يفوق ذلك شناعةً بما لا قياس له ، لانه ينافي خضوع ارادة الخليقة لمشيئة الخالق . ثم برهنا على كون الله مبدئ بعض الشرور الطبيعية ، اي تلك التي تحصل لا محالة من نواميس الطبيعة ، وتلازم لنظام العالم وكماله ، وتلك التي يُنزلها حكم العدل الالهي بالخطأة ، فتدعى عقوبات . اما الشرّ الادبي فاثبتنا انه ليس من الله ، بل مصدره

*) صحح عبارتها وعني بنشرها على صفحات هذه المجلة القس اسطفان فرحات الراهب اللبناني .

1) راجع مشرق هذه السنة ، شهر اذار ، ص ١٦١–١٧١

ارادة الخليقة المخالفة لمشيئة الله ، والمائلة الى بعض الخيرات الجزئيــة بدل الله الخير الاعظم .

غير ان هذا الشر الفظيع الذي يستحيل ان يــكون الله علّته ، قد اعتدنا القول عنــه ، ان الله تعالى يسمح بحدوثه . فيفيــد اذن ان نبحث عن معنى هذه العبارة ، جواباً لمن يسألنا : هل يحتوي هذا السماح على شيء من التــأثير الوضعي ؟ ام يُفهم بالمعنى السلبي فقط ؟ اي بأنه عزّ وجــل لا يمنع الشرّ عن الحدوث .

إلّا انه لدى تأملنا بهذا السماح يخطر في بالنا سؤال آخر ، وهو معرفة غاية هذا السماح ، اي لماذا لا يمنع الله الشرور عن الوجود ؟ واذن فمن المفيــد ان نحلّ هذه المسألة ، ازالــةً لشكّ من يعتقدون ان امتلاء دنيــانا من الفظائع والمنكرات يدلّ على نقص في عناية الله . وكأننا بهم يريدون ان يــكون تعالى مسؤولاً عما في مخلوقاته من النجاسات . وهذا لا يليق ان ينسب اليــه عزّ وجلّ . لذلك نقسم مقالتنا هذه الى قسمين : نبحث في الاول ، عما يجب فهمه بالسماح ؛ اذ يتضمّن سماح الله بمــا في العالم من الشرور الادبية . وفي الثاني نجيب من يــأل : لماذا يسمح الله بوقوع الشرور ، وهل له في هذا غاية يجوز ان نعلمها ؟ والله السميع المجيب .

اذن ماذا يجب فهمه بهذه القضية ؟

١

ان الله يسمح بوقوع الشرور الادبية

ان الامور الالهية ، ينــكشف لنا شيء من خفاياها ، اذا تأملنا بما يشابهها ويماثلها في المخلوقات . فلنا اذاً ان ندرك بعض اسرار العناية الالهية باعتبار ما نلاحظه في اعمال العناية البشرية ؛ فامعن نظرك فيما يجري في الجماعة المدنيــة الخاضعــة لعناية حاكمها ، وسل نفسك ما هي افعــال الافراد التي نقول ان الحاكم يسمح بها . هل هي ما يفعله بعضهم تنفيذاً لاوامره ؟ كلّا ، فانا نقول : ان الحاكم اراد هذه الاشياء ، لا انه سمح بها . وهــل هي مــا يُفعل خلافاً

لارادته وخفيةً عنه او دون ان يقدر على منعها ؟ كلا ، فانه يُقال : ان هذه المخالفات قد جرت بالرغم من الحاكم وبغير رضاه وذلك مما ينافي سماحه . لكن هب ان هذا الحاكم يعرف ان البعض يعملون ما تنهي الشريعة عنه ؛ وهو يستطيع ان يردعهم ويضطرهم الى امتثال الشريعة ، الا انه يمتنع عن ذلك ، ويتغاضى عن سلوك اولئك المذنبين مع انه لا يستحسنه ؛ فلا شكَّ حينئذٍ في صحة القول انه يسمح بما يفعلون ، لانه كان في وسعه ان يمنعهم عن ذلك ولم يرد . واذن فهذان الامران يحتوي عليهما تصوّر السماح ، اي من جهة القوة الكافية لمنع شيء عن الحدوث ، ومن جهة عدم استعمال هذه القوة . وهذا منسوب الى الارادة الحرّة . وجليٌ ان اول هذين الامرين هو شيء وضعي ، خلافاً للثاني فانه ليس سوى سلبيّ ، لا يضع شيئاً حقيقيًا فيمن يُعزى اليه السماح . كذلك تصوّر علماء اللاهوت بسماح الله بشرور هذه الدنيا . وبالتالي يمكننا ان نعبّر عن ذلك بقولنا انه تعالى يستطيع ان يمنع هذه الشرور عن الحدوث ، ولا يستعمل استطاعته هذه. واذن فهذان ايضاً جزآن : اولها وضعي ، والآخر سلبي .

ولكن ربَّ قارئٍ لا يرضيه تبياننا هذا ، اذ يظهر له انه يتضمن عيباً معزوًا اليه تعالى . لان من كان في طاقته ان يمنع شرًا عن الحدوث ولم يمنعه ، يُحسب غافلًا ، او مقصرًا ، او متّفقاً مع صانعيه . ولا نرتاب في نسبة ذلك الشرّ عينه اليه ، كأنه مشترك في احداثه . كأن نقول مثلًا : ان قائد الجيش هو المسؤول عن انتصار العدوّ الذي كان في وسعه ان يقمعه ، واهمل ذلك ، ومن جرّاء اهماله هذا تسرّب الخراب الى المملكة . فاذا كان لا بدّ ان نتصوّر سماح الله بذنوب البشر ، على هذا المنوال ، يظهر اننا ننسبها اليه عزّ وجلّ ، كأنه مسؤول عنها ، وهو بنوع ما مبدئها وعلّتها .

ولكن اعلم ، يا هداك الله ، ان هذا الاعتراض ليس بحديث ، فان الآباء الاجلّاء والمعلّمين القدماء قد اعتنوا بحلّه ، واوردوا لذلك براهين ساطعة . واليك الآن تمييزًا بسيطاً في شأن ذلك : هب انك استاذ في مدرسة ، وان تلامذتك يضيعون اوقاتهم ، ويخلون بالنظام ، وانت صامت متغاضٍ . فمما لا شك فيه

عندئذٍ أنه يقال انك مسؤول عما يأتيه التلاميذ من الهفوات. ثم هب ان لك بستاناً فيه اشجار جميلة اثمارها وغزيرة ، ومرَّ به بعض اولاد فقراء ، على مرأى منك ، وسطوا على تلك الاثمار ، وسكتَّ ، فهل انت مسؤول عن سرقتهم، ومذموم على سكوتك هذا ؟ كلّا ، خلافاً للحال السابقة ، لان الاستاذ يجب عليه ان يقهر تلامذته كلما ساء سلوكهم ، ولهذا تنسب اليه افعال التلاميذ السيئة التي لم يجتهد في منعهم عنها . واذن فترى من ذلك ان السامح ليس بمسؤول عما يسمح به من الشرور ، ولا يحسب علةً لذلك الّا بقدر ما كان واجباً عليه ان يمنع تلك الشرور عن الحدوث ، والا فلا ذنب في سماحه ولا مسؤولية عليه.

والحال ان الله سبحانه ليس واجباً عليه ان يمنع الشرور عن الحدوث . وهذه القضية هي اكيدة من وجهتين : الاولى كون عقلنا يفتش باطلًا عن حجة يبني عليها حكماً ، بانه يجب على الله منع الشرور . والثانية كون وجود الشرور لا ينافي حكمة الخالق او عدله او رأفته الى غير ذلك من كمالاته تعالى ، والا لصار وجود الشرور بالحال عينها من باب المحال . لان كمالات الله يستحيل نقضها كل الاستحالة . لكن وجود الشرور ليس محالًا ، فانه واقع بالفعل . فاذًا ليس فيه ما ينافي كمالًا من كمالات الله.

فنستنتج اذًا ، انه يجوز ان يسمح الله بحدوث الشرور بالمعنى المارّ ذكره ، وليس بمسؤول عنها ، ولا هو علة لها . ولكن هل هو محقق بالكفاية ما قلناه سابقاً : اي ان سماح الله بالشرور لا يحتوي على شيء سوى هذين الامرين ، اعني القدرة على منع الشرور ، وعدم استعمال هذه القدرة . ألا يجب ان نزيد عليهما شيئاً ثالثاً ، وهو تأثيره تعالى في حدوث الشرور ؟ هذا ما يزعمه قوم ، ويجتهدون في اثبات زعمهم بايراد حجتين : الاولى ان الله هو ، ولا شك ، مبدئ اشياء عديدة تحيط بنا وتحملنا كثيرًا على الخطيئة ، كأن يهيج بعض المناظر شهواتنا التي تقودنا الى الاثم ، او كأن تتعاظم المصائب على من يقاسيها ، وهو منكود الحظ ، فلا يبعد اذ ذاك ، ان ينقاد الى التذمر والتجديف . وقد يصعب على طباع الناس تجنب بعض الخطايا ، مثلاً كأن ترى ذوي الدم

الحارّ يحتدمون غيظاً بسرعة . او من كان والده او جدّه قد تعوَّد السكر او غير ذلك من الرذائل ، فبالكدّ يستطيع ان يقهر ميل طبيعته عن مثل ذلك. فلما كانت تلك الظروف والاحوال تصدر من الله ، علّة جميع الكائنات ، فكيف يُنكر ان ما يحدث بسببها من خطايا البشر هو ايضاً ينسب الى الله ، فيكون في سماحه تعالى بتلك الذنوب شيء من التأثير الوضعي . والثانية ، يأخذونها من اعتبار كون الله مبدئ الموجودات كافةً ، مما يوجب علينا الاقرار بان افعالنا بأسرها سواء كانت جيدة او رديئة تصدر منه تعالى ، فله اذن تأثير وضعي في كل فعل نرتكب به الخطيئة ، وبالتالي في الخطيئة نفسها . ومما لا ريب فيه ان حلّ هاتين المشكلتين هو من اعسر ما اقدم عليه ارباب الفلسفة ، وقد آثر الكثيرون منهم عدم البحث فيه لغموضه . فوالحالة هذه ، فليعذرنا القارئ اللبيب اذا كان كل ما نستطيع ان نقوله في هذا الموضوع لا يذهب بصعوبته ، ولا يكفي لايلاء عقل الباحث فيه تمام الاقتناع به ، والارتياح اليه . فنقول :

ان اول ما يجب الّا ننساه ابدًا في درس هذه المسائل ، هو ان الله عزّ وجلّ ، هو الوجود القائم بذاته والكمال الغير المتناهي ، ومن ثمّ ليس تأثيره سوى افاضة وجودٍ وكمالٍ وترقية شيء الى درجةٍ ما من الكمال . فكلّ ما يظهر في البرايا من الاشتراك في الكمال يُنسب لا محالة الى الله ، منبع كل كمال . اما ما فيها من النقص فلا يجوز ان يُنسب الى الله من حيث هو هو . لان النقص ليس اشتراكاً في الكمال ، بل هو خلوٌ من الكمال . والخلو مما يعطيه الفاعل لا يُنسب اليه الّا اذا كان فعله ناقصاً ، اي ادنى مما وجب ان يكون . مثلاً لا يُنسب الى النار ما بقي من البرودة في الماء الموضوع عليها ، الا بمعنى ان النار كانت اضعف مما لزم لتسخين الماء بالتمام . وكذلك لا ينسب الجهل الذي لم يزل في التلميذ الى المعلم ، إلا اذا قصر هذا المعلّم في القيام بمهمته . لكن الفعل الالهي لا يتميز منه تعالى نفسه ، فهو اذن في غاية الكمال ، ولا يقدّر فيه شيء من النقص او القصور . فاذًا لا يجوز ان ننسب الى الله ما في الخلائق من نقص من حيث هو هو . ولا يناقض هذه القضية

ما قد أُثبت في القضية السابقة ، من ان بعض الشرور الطبيعية يُنسب حقاً الى الله ، واذا نسبت تلك الشرور اليه تعالى ، فليس من حيث هي نقائص منافية لملء الوجود ، بل من حيث كونها مرتّبة لتحصيل بعض الخيرات؛ كما هو جلي في العقوبات التي يصلح بها النظام الذي تقصه المذنب ، فهي من هذه الحيثية ليست بنقص كمال في العالم ، بل بالعكس يحصل بها للعالم كمال غير يسير.

فطبّق اذن هذا الاعتبار على كل فعل تقترف به الخطيئة ، ترَ ان هذا الفعل شيء موجود ، له نوعه وخواصه واوان حدوثه ، فما دمنا نعتبره كذلك لا نستطيع الشك في انه من الله مبدئ جميع الموجودات . اما اذا اتينا الى اعتبار خلوه من الحسن الادبي ، ومن الاتفاق مع الشريعة الالهية ، فنضطرّ الى القول ان هذا النقص ليس من الله كما تقدم اثباته ، بل هو من الارادة المخلوقة من حيث هي مخرجة من العدم ، فانها تعود بنوع ما الى العدم حينما تأبى الخضوع لمشيئة الله ، مع كون هذا الخضوع شرطاً لازماً لكل خير من الخلائق. ولهذا نقول انه تعالى هو بالحقيقة علة أولى للفعل الذي ترتكب به الخطيئة. اما الخطيئة نفسها فيسمح بحدوثها فقط ، سماحاً لا يتضمّن تأثيراً البتة منه تعالى . ولا يجوز القول انه هو علة الخطيئة.

وبماذا نجيب الآن على الحجة الاولى التي أخذت من اعتبار كون الله هو الذي يضع فينا وحولنا ظروفاً واحوالاً يجرّنا بعضها الى اتيان المآثم بقوة تصعب مقاومتها ؛ فيظهر اذن انه تعالى يدفعنا بذلك الى الخطيئة وانه يحسب حقًّا مبدئ ذنوبنا . ولا ريب في صحة هذه النتيجة لو ذهبت الاحوال المذكورة بحرّية الانسان حتى لا يبقى في وسعه ان يتمالك عن الخطيئة . او بالاحرى نقول انه لو صار الامر كذلك لما عاد لارتكاب الخطيئة من محلّ . لان الخطيئة الادبية التي يجري كلامنا عليها وحدها ، تستلزم حرية الارادة كشرط ضروري. فكلما نقصت الحرية قلّت بالمقدار عينه حقيقة الخطيئة . ولهذا نوقن ان المجانين والسكارى وسائر من فقدوا الرشد ليسوا مذنبين بما اتوا من القبائح ما داموا على تلك الحالة . مع انهم ربّما اذنبوا جدًّا برضاهم بما ادّى بهم الى الحالة عينها كما يظهر فيمن يثمل عمداً.

فتنحصر اذن المشكلة الحاضرة في تلك الاحوال التي ، وان كانت تزيد الانسان ميلاً الى بعض المحظورات ، وضعفاً في مقاومة شهواته ، فانها مع ذلك لا تزيل من حرية الارادة ما يكفي ليكون الانسان مسؤولًا عن افعاله ، ومذموماً اذا انقاد الى المنكر . وليست هذه الملاحظة قليلة الاهمية . لان كثيرين يغلطون في هذه المسألة ظانين ان ما يصيب المرء من هيجان الشهوات، ويداهمه من هجوم التجارب ، قد يجرّه لا محالة مرغماً الى الخطيئة . فيظهر لهم من ثمّ ان الله هو علة تلك الخطايا ، غير ان من غصب على اتيان بعض الحركات او الافعال الخارجية ليس بمسؤول عنها ، ولا تحسب هي افعالًا ، ولا بأس في كون الله علةً لها فانها ليست بذنوب.

وماذا نقول الآن عن الاحوال الاخرى ، تلك التي لا يفقد الانسان بها حريته ومسؤوليته مع انهما تنقصان بمقدار شدة التجربة وقلة التأهب لمقاومتها . نعم ان قوماً هنا ايضاً يميلون الى الزعم انه تعالى هو علة الخطايا التي تُرتكب بسبب تلك التجارب ، فتسمع بعض اصحاب الرذائل يعذرون انفسهم بحجج كهذه: ان خُلقي يحملني على هذه الافعال ، ولا اقوى على ملاشاته ولا على معاكسته، فلماذا اعطاني الله طبعاً كهذا ؟ ولمَ وضع في طريقي هذه المعاثر ؟ اعني الخلائق التي اثارت شهواتي واغرتني بما يرذله وجداني ، والشدائد التي ذهبت بصبري وحركتني على التجديف . فحبذا لو كنت كفلانٍ وفلانٍ وفلانٍ من يظهر الميل الى الفضيلة مغروزًا في سجيتهم ويعيشون بمعزل عن تهالك الدنيا ومفاسد المجتمع الانساني !

لكن اتظن ، ايها القارئ العزيز ، ان الخاطئ يبرّر ساحته امام الله بمثل هذا الاحتجاج ؟ نعم انه يبرهن بذلك على ان حريته نقصت بمقدار ما اصابه من التجارب وما أحاط به من المعاثر ، فهو اذن بالمقدار عينه معذور في مساوئه ، وهذا مما لا يُرتاب فيه ، ولكن هل يكفي هذا العذر لنسب خطايا هذا الانسان الى الخالق كأنه تعالى هو محدثها ؟ كلّا . فان الكتاب المقدس والعقل المستقيم يتوافقان على تأكيد ما عبّر عنه الرسول اذ قال : ان الله هو امين فلا يسمح بان تجرّبوا فوق طاقتكم ، اي مهما ظهر من شدة بعض

ما يهبُّ علينا من رياح العواصف ومن عجزنا عن النجاة من الغرق ، ومع ذلك فمن المؤكد ان الله الذي هو الحكمة والرأفة بعينهما يجعل الدواء دائماً مناسباً للداء ، واسباب الدفاع موازيةً لاسلحة العدوّ ، وصوت الوجدان معارضاً لصراخ الشهوات ، حتى يكون في يد المرء تمييز حاله ، وارجاح احدى كفتي الميزان ، ولهذا ترى الذين استسلموا للشهوات وتمرغوا في حمأة الاثم ، ثم تابوا ، فانهم من آن اهتدائهم لا يعودون الى الاعتذار بمثل ما مرّ من العلل ، ولا يخطر في بالهم ان يشكوا الله كأنه عزَّ وجلَّ هو بمقدار ما مسؤول عما اتوه سالفاً . بل يعتقدون انهم هم المسؤولون ، وانه لو توفاهم الله ، غيرَ مرتدين اليه بالتوبة ، لساغ لجلاله الالهي ان يؤنبهم ويعذبهم الى ابد الابدين . وحكم التائبين هذا لا شك انه اصحّ واحقّ من رأي الذين اعمت الرذيلة عقولهم . ومع ذلك ترغب كبرياؤهم في تبرير حالهم حتى يحمل المسؤولية عنها ، على من خالفوا شريعة الله واستوجبوا ضربات عدله .

٢

لماذا يسمح الله بوقوع الشرور الادبية ؟

لئن كانت طوّحت بنا الجرأة الى البحث في هذا الموضوع ، والتطفّل عليه تعالى بالسؤال عما قصده بترتيب عنايته الذي يتضمّن السماح بالشرور ، فليست هذه المقاصد الالهية الا لججاً لا قعر لها ، ولا يقوى على سبرها سوى العقل الالهي . ومن هو الانسان ، ليدّعي بمحاسبة خالقه عن اعماله ؟ أليس الخزّاف مطلق الحرّية ليصنع من المادّة نفسها ، على خاطرهِ ، آنية لكرامته وآنية للهوان؟ أيحلّ للاناء ان يسأل صانعه قائلاً : لماذا صوّرتني كذا وكذا (رومية ٩ : ١٥ — ٢١) هذه هي كلمات القديس بولس التي تحذرنا من الادّعاء بالتفتيش عن كل غاية قصدها الله بتنظيمه العالم بهذا او بذلك النمط ، فانه اذا كانت نوايا كل انسان بطبعها تخفى على سائر الناس ، فكم بالحري يقصر ذهننا الضعيف عن ادراك تلك الاعماق البعيدة عن انظار الجميع ، اعني بها مقاصد الحكمة الازلية .

فيا رعاك الله لا تتحيَّر مضطرباً ، مهما لاحظت في تبياننا هذا من عدم المعادلة للموضوع ، ومن نقص الكفاية لازالة كل ما يعترينا طبعاً من الدهشة تجاه هذه الشرور الفظيعة ، اعني الجرائم والقبائح التي كثرت كامواج بحر عظيم ووخيم ، تغطي المسكونة ، وتغمرها على الدوام.

وكل متأمل بهذا المنظر المزعج والمحزن يندفع طبعاً الى هذا السؤال: لماذا لا يمنع الله هذه الشرور عن الحدوث ؟ وبما ان الفلاسفة وآباء الكنيسة ، وعلماء اللاهوت قد اجابوا عليه ، فاننا نقتفي آثارهم مبيّنين ما وصل اليه العقل البشري حتى اليوم ببحثه عن هذه المسألة العويصة.

اولاً: يجب ان نميّز بين معنيين ، يجوز ان يفهم بكل واحد منهما السؤال المذكور اي لماذا يسمح الله بوقوع الشرور ؟ اولهما : ما يعبَّر عنه هكذا : لماذا او لاي غاية اختار الله ، بين العوالم الممكنة ، عالمنا هذا الذي من اجزائه خلائق عديدة لا يخلو وجودها من الشر الادبي ؟ ولِمَ لم يؤثر الله عالماً يخلو من كل شر ادبي ؟ ثانيهما : لايّ خيرٍ يرتّب الله ما في عالمنا من الشرور الادبية ، حتى لا يخلو حضورها من كل منفعةٍ ، وبالتالي من كل لياقة ؟

فاذا فُهم بحسب منطوق المعنى الاوّل ، وجب القول ان هذا السؤال هو باطل ، ولا يمكن ان يجاب عليه بشيء ، وذلك لان اختيار الله احد العوالم الممكنة ، دون غيره ، لا يتعلق إلا بمشيئة الخالق المطلقة الحريّة . فيستحيل تصور علّةٍ او حجةٍ ، امالت الله الى ان يكون هذا العالم مؤثَراً اياه على سواه . فنقول اذن : ان هذا العالم هو موجود مع كل ما فيه من خيرٍ وشرٍ ، لان الله شاء ان يوجد . وان مشيئة الله هذه لا يُمكن ان يُبحث لها عن علة . لكونها هي العلة الاولى والاصلية ، التي يتعلق بها ، ويُنسب اليها وجود كل كائن . فاذن ان الله رضي بانشاء هذا العالم ، لا لعلة من العلل ، بل بمجرد استعمال حريّته التي استطاع بها ان يوجد بدل هذا العالم ، وعلى حدٍ سواء ، بعض العوالم الممكنة التي لا انتهاء لسلسلتها .

واذا فهم بحسب منطوق المعنى الثاني ، نجيب مع القديسين اوغسطين وتوما ، مقرّين بان حكمة الله وجودته الغير المحدودتين تمنعاننا عن الظن بانه

جاز ان يسمح الله بوجود الشرور الادبية ، لو لم يرد ترتيبها لاحداث بعض الخيرات التي لولا تلك الشرور لما كان الى وجودها من سبيل ، ولهذا قال الآباء واللاهوتيون : ان الشياطين والاشرار كافة هم كآلات في يد الله الذي يستخدمهم ، مع كل ما يفعلون ، ويرتّب ذلك الى الغايات التي تقصدها عنايته، وان الخطايا هي في العالم كالقواتم التي يضعها المصوّر في بعض اجزاء صورته قصد ان يزيد باقي الالوان ظهورًا وسطوعًا مما يفيد لجمال الصورة ، او هي كاوقات السكوت التي تتخلل اغنيةً ما فتزيدها بهجةً . وتشبّه الخطايا ايضًا بما في بيت طبيب من السموم وادوات الجراحة ، فان هذه مهما كانت بطبعها مضرة ، فانها اذا استعملها الطبيب بيدٍ تدبرها الفطنة ، تصير جزيلة النفع . فكما انه لا يستغرب احد حضور تلك الآلات عند النطاسي ، ولا يخطر على بالٍ ان يمتنع عن استخدامها ، كذلك وباقوى حجة لا يسوغ ان نشكّ في حكمة الله وكمال عنايته بسبب وجود الاشرار في هذا العالم مع ما يفعلونه من الجنايات والنجاسات .

اما تلك الخيرات التي تحصل في العالم من وجود الخطأة وذنوبهم ، فهاك بيانها طبقًا لتعليم القديسين المذكورين اللذين يتبعهما اللاهوتيون الكاثوليك بأسرهم :

اولها : ان يكون في العالم ظهور لكمالَين من كمالات الله ، ألا وهما الرحمة والعدل . فانه ، لو لم تكن خطايا في العالم ، لما امكن ان يمارس الله رحمته بمغفرة الآثام ، ولا ان يزاول عدله بمعاقبة الاشرار . ولكان هذا نقصًا عظيمًا في العالم ، لان المخلوقات برمّتها هي مرآة كبيرة مصنوعة لتعكس اشعة كمالات الخالق ، فيليق من ثم ان يكون في العالم ما تتمثل به كمالات الله كافةً .

ثانيها : سرُّ الفداء الذي هو اعجب جميع اعمال الله ، واشرفها واجلها ، فهو اذن اجزلها تمجيدًا للخالق ، وجليّ ان هذا السرّ الجليل لم يمكن وجوده ، لو لم يسقط البشر ، فيجوز اذن ان نقول : انه عزّ وجلّ سمح بسقوط الجنس البشري قصد ان يكون هذا المصاب سببًا لايجاد سر الفداء .

ثالثها : ان يكون في الحياة البشرية محلّ لفضيلة التوبة مع كل ما ولّدته

من الاعمال المدهشة في خدّام الله الذين ارتدُّوا الى الحق ، فهنا ايضاً يحق لنا ان نقول : ان العالم كان ناقصاً جدًّا ، لو لم تتلألأ في البشر هذه الجوهرة الكريمة التي يبهرنا بهاؤها في حياة القديسين . نعم ان كثيرًا منهم باشروا اعمال التوبة مع انهم كانوا اطهارًا منذ صغرهم فاستحقوا هذا الثناء العجيب . فان شدة التكفير اقترنت فيهم ببياض البرارة التامّة . غير انهم واظبوا كذلك على الاصوام وسائر انواع التقشف ، قصدَ ان يميتوا في انفسهم شهوات الطبيعة البشرية الساقطة ، وان يستغفروا الله عن هفواتهم الخفيفة وعن ذنوب الخطاة ، واذن فهذا اوضح صدق ما قلناه ، اي انه لو لم تكن خطيئة في العالم ، لما كان فيه محل لفضيلة التوبة .

رابعها : ان الاشرار يجرّبون الصديقين بما يرسّهم على فضائل عجيبة ، لم يكن ظهورها في العالم ممكناً ، لو كان البشر كلهم ابرارًا . واخص هذه الفضائل اثنتان : الصبر على اساءات الائمة ، والشفقة على شقائهم . فاننا نرى هاتين الدرّتين متلألئتين في كل صفحات التاريخ الكنسي . ولاسيما اولاهما فقد لمعت خصوصاً في الشهداء الذين كابدوا من انواع العذاب ما يفوق كل وصف ، في سبيل عبادة الله والتمسك بشريعته المقدسة . فمن ينكر ان ما ظهرَ فيهم من البسالة والجلادة لم يكن من اعظم الاعاجيب التي تجلّت فيها حكمة الله وقدرته الغير المتناهيتين . اما اشفاق الصديقين على ضلال الخطاة ، فترى ثماره الثمينة . اولًا في ما يُرفع يوميا الى عرش الرحمة الالهية من الصلوات الحارّة لاجل اهتداء الضالين . ثانياً في ما تُشفع به تلك الابتهالات ، من التقشفات والتضحيات المتنوعة لاستعطاف الله على ابنائه الذين ابتعدوا عنه . ثالثاً في ما يُقدم عليه اصحاب الغيرة الرسولية من المساعي الشاقة ليردّوا الخطاة الى التوبة ، وليوصلوا نور الانجيل الى المتكمّين في ظلمة الاديان الكاذبة . وهذه الغيرة ، مع ما ولّدته من الاعمال العظيمة والتضحيات المذهلة ، هي من ابهى المحامد التي تفتخر بها كنيسة المسيح .

خامسها : سموّ القداسة الذي يرتقي اليه خدّام الله بممارسة ما مرَّ تبيانه من الفضائل ، فان وجودهم بين الاشرار كوجود الذهب في النار ، كلما اشتد

اضطرامها عليه ، وطال بقاؤه فيها ، زاد بهاء . ومما يزيدنا عجباً حكمة الله الذي يستخرج اعظم الخيرات من اشنع الاحوال ، ويستخدم مساوئ الارذال لانتصار مختاريه . فاي شيء افظع في هذه الدنيا من خبث الذين يضطهدون اهل الورع ، ويحاولون ملاشاة ملكوت الله ، ولكن اي مجد يساوي نصيب الشهداء في السماء من الكرامة والسعادة مكافأةً ابديةً على ما قاسوه من المشقات بمدةٍ وجيزة ؟ وكذلك الذين يتفانون الآن ، في انذار الأئمة وهداية التائهين . فما افخم اكليل البرّ الذي يحق لهم ترجيه من الديّان العادل ! وما اخفّ ما يكابدونه اليوم من المصاعب ، وما يقتحمونه من المخاطر ، بالنسبة الى ما دعاه الرسول ثقل العظمة الابديّة الفائق كل حد وقياس !

واذن فهذا هو ايضاح انواع الخير التي يرتب الله تعالى ما يسمح بحدوثه من الشرّ الادبي لتحصيلها ، حتى يتضح لكل قارئ لبيب ان سماح الله بالشرور لا يتضمن شيئاً ينافي حكمته وصلاحه ، بل بالعكس يبدو فيه سموّ تلك الحكمة التي تحوّل اسوأ افعال المنافقين لاسباب ، الى احسن النتائج واسعدها ، ولا ترضى بخراب بعض اجزاء الكون إلا لايجاد ما يزيد العالم كمالاً وجمالاً . هذا ما يلذّ لاهل التقوى التأمل به معترفين ومنادين بانه ، عزّ وجلّ ، عجيب ليس في اعمال قوّته فقط ، بل في ترتيب عنايته نحو الشوائب التي لم تصدر منه؛ وليس في محامد اوليائه فقط ، بل كذلك في مآثم الخلائق الناطقة التي اساءت استعمال حريّتها ، وحاولت ان تخرج عن النظام العمومي بالتمرّد على خالقها ، غير انه تعالى يردّها الى النظام عينه بطرقٍ تفوق ما تستطيع ادراكه . هذا وان كان وجود الشرّ الادبي في دنيانا سرّاً يقف تجاهه عقلنا منذهلاً ، فمع ذلك ليس سعينا في شرح هذا السرّ مبذولاً باطلاً ، فانه يزيدنا استعظاماً لتلك الحكمة الالهية ، التي تجلّى لنا الآن شيء يسير من كنوزها وسبلها ، ومحبةً لله الذي يظهر صلاحه كما في الخيرات التي هو مصدرها وموزعها كذلك في الشرور التي لا يسمح بوقوعها ، الّا ليحصل منها خير عميم ، وخصوصاً لتكون تلك الشرور مفيدةً اجر الثواب الابدي ، لكل من يجاهد ضدّ الشرّ ، ويسعى الى انتصار الخير .